الفصل الخامس

ابن ماجد البحار الشاعر
وأدب المرشدات البحرية

إذا كانت رحلات السندباد البحرى ، أهم القصص البحرية العربية ، هى حلقة فى سلسلة أدب البحر العربى ، تأتى بعد قصص التجار العرب البحرية ، فإن أدب المرشدات البحرية هو التطور اللاحق لأدب البحر العربى نحو العلم والأدب أو الأدب العلمى أو الجغرافى الملاحى ، كما أبدعه ملاحو الخليج فى أوج ازدهار الملاحة العربية على يدى البحار الشاعر أحمد بن ماجد فى القرن الخامس عشر الميلادى . فقد انطلقت كل هذه القصص البحرية العربية من موانئ الخليج سيراف وعمان والبصرة ، ودارت وقائعها وتجاربها فى الخليج والمحيط الهندى ، والمحيط الهادى ، والبحر الأحمر ، من الجزر الأفريقية إلى ساحل الصين مرورًا بالجزر الأندونيسية .

ويقول كراتشكوفسكى ، فى كتابه تاريخ الأدب الجغرافى العربى[1] ، إن هذه القصص البحرية العربية لم تنبت فجأة بل إن لها جذورا ممعنة فى القدم فى الأدب العربى القديم ولكن حلقات تطورها لم تحفظ جميعها . وإن أدب المرشدات البحرية العربى بدوره يسير فى خط تطور الأدب الجغرافى العربى ويرتبط بالجغرافيا الملاحية ، قدر ارتباطه بقصص التجار العرب البحرية بل إنه يتقدم عنها من مجرد قصص أدبية وفنية إلى أدب يجمع بين الأهداف الأدبية والأهداف العلمية ويمزج بين أدب البحر وعلم البحر ، هو أدب المرشدات البحرية أو « الراهنامج » ، أو « الرهمانى » ، وسنتعرف فى هذا الفصل إلى أدب المرشدات البحرية ، الوجه العلمى لأدب البحر العربى ، وإلى أعظم مبدعيه البحار الأديب الشاعر أحمد بن ماجد ، وزميله سليمان المهرى .

يقول الزبيدى فى « تاج العروس » إن « الراهنامج » كلمة فارسية استعملها العرب ،

(١) كراتشكوفسكى ، تاريخ الأدب الجغرافى العربى ، جـ ٢ ، ص ٥٦٤ .

وأصلها الفارسى « راه نامه » ويعنى كتاب الطريق » ، وهو الكتاب الذى يسلك به الربابنة البحر ويهتدون به فى معرفة المراسى وغيرها كالشعب ونحو ذلك .. فأدب المرشدات البحرية أو « الراهنامج » يعنى كتب الإرشاد البحرى للطرق البحرية ، والتيارات والرياح والمد والجزر والسواحل والمداخل الساحلية والشعب وما إلى ذلك ، صاغ فيها البحارة العرب معارفهم وعلومهم وتجارتهم البحرية صياغة أدبية علمية . وقد أفادت هذه الكتب البحرية العربية حركة الملاحة العالمية ، وقادت المكتشفين الأوربيين إلى اكتشافاتهم الباهرة فى أفريقيا وآسيا ، بما قدمته من معلومات عملية تختلف كثيرًا عن المعارف النظرية التقليدية المعروفة آن ذاك فى علم البحر والطرق البحرية والرحلات البحرية .

لم تصلنا من الأصول الأولى لأدب المرشدات البحرية سوى بعض الإشارات الواردة فى كتب المؤرخين والرحالة والجغرافيين العرب ، التى ترجح نشأة هذا الأدب البحرى فى نفس المنطقة التى انطلقت منها رحلات التجار العرب وقصصهم البحرية ، سيراف وعمان ، وفى ذات الحقبة أيضاً ، أى فى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين .

وقد تحدث ابن ماجد عن ثلاثة شيوخ من رواد أدب المرشدات البحرية واعتبرهم شيوخه وأساتذته ووصف نفسه بأنه رابعهم ، وقال إنه عثر على مخطوطة « راهنامج » من أدب المرشدات البحرية مع حفيد لأحد هؤلاء الشيوخ مؤرخة بعام ٥٨٠ هجرية أي ١١٨٤ ميلادية . أما الشيوخ الثلاثة فهم « محمد بن شاذان » ، « سهل بن أبان » ، « الليث بن كهلان » ، من مؤلفى أدب البحر فى العصر العباسى فى القرن الثانى عشر الميلادى . وأما أعمالهم فلم تزل مجهولة حتى اليوم كسائر الأعمال الأولى لأدب المرشدات البحرية . إذْ لم يصلنا منها سوى مؤلفات اثنين من كبار أدباء المرشدات البحرية فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين ، هما أحمد بن ماجد وسليمان المهرى .

وقد ظلت هذه المؤلفات محتجبة حتى اكتشفها المستشرق الفرنسى « جبرييل فيران » مخطوطة بمكتبة باريس ، فصورها فوتوغرافيًّا وعلق عليها . وقام بنشرها فى السنوات ١٩٢١ – ١٩٢٣ . هذا ما يذكره الدكتور أنور عبد العليم فى كتابه « ابن ماجد الملاح »[٢] . غير أن كراتشكوفسكى[٣] يرجع تاريخ اكتشاف مخطوطات ابن ماجد وسليمان المهرى إلى عام

---

(٢) الدكتور أنور عبد العليم ، ابن ماجد الملاح ، ص ٥ .

(٣) كراتشكوفسكى ، تاريخ الأدب الجغرافى العربى ، حـ ٢ ، ص ٥٧١ و ٥٧٢ .

١٩١٢ ، ويذكر أن الذى قام بإرشاد فيران إلى المخطوطين هو المستعرب الفرنسى « جود فرواد يوبين » ، الذى كان يعاون زميله فيران فى البحث بمحفوظات المكتبة الأهلية بباريس استعداداً لكتاب فيران الضخم « قصص الرحلات والنصوص الجغرافية العربية والفارسية والتركية المتعلقة بالشرق الأقصى من القرن الثالث عشر إلى القرن الثامن عشر » ، الصادر فى باريس من جزأين فى عام ١٩١٣ – ١٩١٤ . وعلى أية حال فإن التاريخين يؤكدان حداثة اكتشاف مؤلفات ابن ماجد والمهرى ، بعد أن عرفتها أوربا من قبل منقولة فى مؤلف وضعه أمير البحر التركى « سيد على ريس » ، ذكر فيه عدداً من عناوين مؤلفات ابن ماجد ، ويقول كراتشكوفسكى إن العثور المتأخر على مؤلفات ابن ماجد وسليمان المهرى كشف عن صفحة مشرقة فى الأدب العربى لم تكن معروفة من قبل ، وإن هذه المؤلفات « تحتل مكانة مرموقة فى تاريخ الحضارة البشرية جمعاء » و « تمثل أهم مصدر للمعلومات الجغرافية التى كانت تحت تصرف العصور الوسطى المتأخرة عن البحار الجنوبية » ، وإنها جماع للمعارف البحرية فى عصرها .

أما ابن ماجد فهو رائد أدب المرشدات البحرية ، وهو أديب وعالم وبحار ، صاغ معظم مؤلفاته الأربعين شعرًا ، عدا كتابه الكبير « كتاب الفوايد فى أصول علم البحر والقواعد » الذى كتبه نثراً وعده المستشرق الفرنسى « فيران » ذروة التأليف الفلكى الملاحى فى عصره . ووصف فيران ابن ماجد بأنه « أول مؤلف للمرشدات البحرية الحديثة » . وقال عنه كراتشكوفسكى إنه تميز عمن سبقوه من رواد المرشدات البحرية بأنه « قارئ مطلع فى مجال الأدب » ، وأن « معرفته بالأدب الجغرافى عامة ليست أقل من معرفته بالأدب الملاحى » ، « وأنه لا يهمل إيراد أسماء مصنفات أدبية صرفة ، كما يستشهد بأبيات لعدد من الشعراء ابتداءً من العصر الجاهلى إلى القرن الخامس عشر »[٤] .وهو الدليل البحرى الذى قاد المكتشف البرتغالى فاسكودى جاما إلى رحلاته البحرية من الساحل الأفريقى إلى المحيط الهندى وحتى الهند . وقد ظلت مؤلفاته البحرية تؤثر فى الملاحة الغربية حتى القرن العشرين ، عندما نقلها الأتراك والأوربيون فى مؤلفاتهم بدون ذكر اسمه حتى اكتشفه المستشرق الفرنسى فيران ووجد فى كتبه أصول الملاحة البحرية التركية والأوربية .

وأما سليمان بن أحمد بن سليمان المهرى فهو بحار عربى من أبناء مدينة الشحر الواقعة على

(٤) المصدر السابق ، ص ٥٧٧ .

الساحل الجنوبى لحضر موت . أى أنه من ملاحى الخليج الذين تمرسوا بالملاحة البحرية فى البحر الأحمر والسواحل والجزر الأفريقية والمحيط الهندى والساحل الهندى أيضًا . وقد جاء المهرى بعد ابن ماجد بنحو نصف قرن ، أى فى أوائل القرن السادس عشر . وعلى أية حال فالتواريخ كلها تقريبية ، وهى تستند إلى تفسير وتأويل تواريخ نشر مؤلفات ابن ماجد والمهرى ، وظروفها التاريخية المعاصرة لها . فيرجع تاريخ أهم مؤلفاته البحرية « العمدة المهرية فى ضبط العلوم البحرية » ، إلى عام ٩١٧هـ أو ١٥١١ ميلادية . ويذكر كراتشكوفسكى أن مضمون مؤلفاته يكرر إلى حد كبير ما جاء بمؤلفات ابن ماجد . وأن مؤلفاته كلها صيغت نثرًا . غير أنه يقول بأن « محيط تجربته العملية كان واسعًا للغاية بالرغم من أن مصنفاته تبدو قاحلة وفقيرة إذا ما قورنت بمصنفات ابن ماجد من وجهة نظر الاطلاع الأدبى والمستوى الثقافى العام »[٥] وهذا كله يؤكد أهمية ابن ماجد البحار الأديب الشاعر رائد أدب المرشدات البحرية .

تعكس مؤلفات البحار العربى سليمان المهرى خبراته وتجاربه التى صقلتها رحلاته البحرية وما استقاه من معلومات ابن ماجد عن علم البحر وطرق الملاحة والآلات والأدوات الملاحية ، أى أنه يغلب الطابع العلمى والتجريبى على مؤلفاته أكثر من الطابع الأدبى ، ولكنه يتفق مع ما قال به ابن ماجد من أن معرفة البحر تتطلب الفكر والتجربة العملية معًا .

وقد احتوت مخطوطات باريس على خمس مؤلفات لسليمان المهرى ، أهمها وأكبرها كتابيه « العمدة المهرية فى ضبط العلوم البحرية » وكتاب « المنهاج الفاخر فى علم البحر الزاخر » . ويتناول المهرى فى كتابه « العمدة المهرية فى محيط العلوم البحرية » أصول الفلك البحرى واصطلاحاته والنجوم وطرق الاسترشاد بها فى الملاحة البحرية ، والرياح البحرية وأهمها الرياح الموسمية ، والجزر البحرية ، والطرق البحرية ويرشد البحارة إليها ويحذر من مخاطرها . وقد خص المهرى باهتمامه ، الطريق البحرى الكبير من البحر الأحمر إلى الصين . فقسمه إلى أربعة عشر قسمًا تبين الموانئ الواقعة على سواحله والجزر القريبة منه ، غير أن مؤلفه أقرب إلى العلم منه إلى الأدب كما هو الحال فى سائر مؤلفاته البحرية ، كما أن ما جاء به من وصف للطريق البحرى إلى الصين ، تكرار لما سبق أن قام به أحمد بن ماجد فى أراجيزه البحرية التى وصفت نفس الطريق .

---

(٥) المصدر السابق ، ص ٥٨٠ .

على حين أفرد المهرى صفحات مؤلفه « كتاب المنهج الفاخر فى علم البحر الزاخر » لسواحل المحيط الهندى والطرق البحرية ، وتحديد المسافات بين الساحل العربى والساحل الهندى وخليج البنغال وبين السواحل الأفريقية الشرقية والجزر الأندونيسية ، والعلامات الدالة على اقتراب تلك السواحل ومدنها وموانيها ، كما حذر أيضاً من العواصف والرياح ومخاطر الملاحة وحدد معالم بعض الطرق البحرية . أما بقية مؤلفاته فتدور حول الآلات البحرية وطرق القياس الفلكية والملاحية وأساليب التقويم المختلفة . وهى مؤلفات أقل حجمًا وشأناً بالقياس إلى مؤلفيه الكبيرين المشار إليهما فى السطور السابقة . لذا نعود إلى ابن ماجد ، أديب البحر العربى ورائد أدب المرشدات البحرية .

هو الشيخ شهاب الدين أحمد بن ماجد بن محمد بن عمرو بن فضل بن دويك بن يوسف ابن حسن بن حسين بن أبى معلق السعدى بن أبى الركائب النجدى ، كما قدم نفسه فى مستهل كتابه « حاوية الاختصار فى أصول علم البحار » . وأطلق على نفسه عدة ألقاب أخرى مثل « ناظم القبلتين مكة وبيت المقدس » ، و « حاج الحرمين الشريفين » ، و « أسد البحر الزخار » ، و « خلف الليوث » ، و « المعلم العربى » و « رابع الثلاثة » ، و « رابع الليوث » ، وهو « رئيس علم البحر وفاضله وأستاذ هذا الفن وكامله » . من أبناء الخليج مواليد جلفار الواقعة على الساحل الغربى لخليج عمان .

وهو ، مثل سائر أدباء المرشدات البحرية ، لا يعرف تاريخ ميلاده بالتحديد ولكن بالتقريب من مؤلفاته وأقواله ورحلاته ومعاصريه . فمؤلفاته تشير إلى رحلاته البحرية فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، وقال هو عن نفسه إنه مارس القيادة البحرية طوال أربعين عاماً ، فيرجح أنه ولد خلال النصف الأول من القرن الخامس عشر ، نحو الثلاثينات من هذا القرن كما يقول كراتشكوفسكى . فى حين يرجع الدكتور أنور عبد العليم ، فى كتابه « عن ابن ماجد الملاح » ، ميلاده إلى سنة ٨٣٨ هجرية اعتمادًا على ما جاء بشعر ابن ماجد عن تاريخ مؤلفاته ، وهو تاريخ يقترب من تاريخ كراتشكوفسكى . وهى على كل حال تواريخ تقريبية . وليس أدل على ذلك من أن ابن ماجد نفسه قدر سنوات عمله بالبحر تقديرين مختلفين ، فى « كتاب الفوائد فى أصول علم البحر والقواعد » ، فجاء خمسين سنة فى فقرة وجاء أربعين سنة فى فقرة أخرى . فقال فى مجال حديثه عن أهمية الدفة وعامل الدفة وضرورة مراقبته : « والحذر كل الحذر من صاحب السكّان (الدفة) لئلا يغفل عنه فإنه أكبر أعدائك فلم تدر عند النتخة

من غريمك من أهل السكان . وما صنفت هذا الكتاب إلا بعد أن مضت لى خمسين سنة وما تركت فيها صاحب السكان وحده إلا أن أكون على رأسه أو من يقوم مقامى » ثم تحدث مرة أخرى عن خبرات جده وأبيه فى عالم البحر والسفن قائلا : «كان جدى عليه الرحمة محقق ومدقق ولم يقر لأحد فيه وزاد عليه الوالد رحمة الله عليه بالتجريب والتكرار وفاق علمه علم أبيه . فلما جاء زماننا هذا وكررنا قريبًا من أربعين سنة وقدرنا علم الرجلين النادرين وورّخناه وجميع ما جربناه وأرّخناه انكشف لنا عن أشياء وحكم » . ويقول الدكتور أنور عبد العليم[٦] عن هذا الاختلاف إن هذه الأرقام تقريبية وإن السنوات العشر الفارق بين التقديرين جاءت من « أنه تولى قيادة المركب وهو بعد حدث صغير مع أبيه وهو فى سن العاشرة من عمره وكان أبوه دائماً يحثه على مراقبة عامل الدفة ثم إنه لم يقم بقياسات مستقلة بعد ذلك إلا بعد نحو عشر سنوات حينما كانت سنه بين السابعة عشرة والعشرين وفيها تولى مسئولية المركب والقياس مسئولية تامة ، ويتفق ذلك تمامًا وقوله إنه كتب هذه النسخة من كتاب الفوائد وسنه ٥٧ سنة » . وهو تفسير معقول لاختلاف التقديرين .

وتدل هاتان الفقرتان على نشأة ابن ماجد فى أسرة بحرية تمرست بفنون البحر وأدب البحر أيضًا . فالجد والأب « معلمان » أى قائدان من قادة البحر العرب ، وهما أديبان وشاعران أيضاً . وكان الأب يعرف بـ « ربان البريْن » أى ساحلى البحر الأحمر ، كما يقول كراتشكوفسكى فى كتابه « تاريخ الأدب الجغرافى العربى » ، أو « بر العرب وبر العجم » كما يقول د . أنور عبد العليم فى كتابه « ابن ماجد الملاح » ، ويشكل هذان الكتابان المصدر الرئيسى لمؤلفات ابن ماجد فى هذا الفصل . وقد تحدث ابن ماجد عن اعتماده على معلومات جده وأبيه وخبراتهما فى الملاحة البحرية . وكان أبوه شاعرًا أيضًا وأديبًا للمرشدات البحرية . فله مؤلف ضخم يلخص فيه تجاربه البحرية ، كما يذكر المستشرق الفرنسى فيران ، عنوانه « الأرجوزة الحجازية » ضم أكثر من ألف بيت عن الملاحة فى البحر الأحمر .

وقد استكمل ابن ماجد مسيرة جده وأبيه ومن سبقوه من ملاحى الخليج أدباء المرشدات البحرية الأوائل ، كما وجه إليهم النقد وصحح الكثير من معلوماتهم وأضاف إليها الكثير من خلاصة تجاربه البحرية وثقافته وأدبه . وتحدث ابن ماجد عن أسلوبه العملى والأدبى فى إبداع أدب المرشدات البحرية وصياغته وتصحيحه لأقوال سابقيه ، وخاصة الثلاثة الذين عد نفسه

(٦) الدكتور أنور عبد العليم ، ابن ماجد الملاح ، ص ١٨ و ١٩ .

رابعهم ، وكيف اعتمد على تجاربه العملية البحرية ونظمها فى أراجيز وقصائد شعرية فقال : « وقد عظمنا علمهم وتأليفهم وجللنا قدورهم رحمة الله عليهم بقولنا أنا رابع الثلاثة وربما فى العلم الذى اخترعناه فى البحر ورقة واحدة تقيم فى البلاغة والصحة والفايدة والهداية والدلالة بأكثر ما صنفوه ... وهم مؤلفين لا مجربين ولم أعرف لهم رابع غيرى وقرتهم بأنى رابعهم لتقدمهم فى الهجرة فقط وسيأتى بعد موتى زمانا ورجالا يعرفون لكل أحد منزلته ولما اطلعت على تأليفهم ورأيته ضعيفًا بغير قيد ولا صحة بالكلية ولا تهذيب هذبت ما صح منه وذكرت الاختراعات التى اخترعتها وصححتها وجربتها عام بعد عام فى نظم الأراجيز والقصايد .. » أى أن ابن ماجد هو ذروة أدب المرشدات البحرية فقد جمع فى مؤلفاته وخبراته كل أعمال سابقيه وصفاها ونقاها وأضاف إليها من تجاربه وعلمه وأدبه . ويقول كراتشكوفسكى إن « أحمد بن ماجد » هو الجغرافى العربى الوحيد الذى لم يتبع مذهب بطليموس فى تقسيم خط الاستواء والزوال إلى ثلاثمائة وستين درجة ، فلديه يوجد مائتين وأربعة وعشرين أصبعاً . . »[٧] وأنه يغلب المعلومات الواقعية العملية على المعلومات النظرية ، وينفرد بالتجربة العملية العربية فى عالم البحر بدون اعتماد على النظريات اليونانية . ومن هنا يقدم الإضافة العملية والعلمية إلى علم البحر وأدب البحر .

ويعد ابن ماجد شاعر البحر العربى بحق ، فقد جمع بين الخبرة بعالم البحر والعلم بطرق الملاحة البحرية ، والآلات البحرية والظواهر البحرية ، وبين الشعر . ولأنه شاعر فقد صاغ كل فكره وعلمه وتجاربه شعرًا . وقد صور شعره مدى عمق تجاربه وثقافته وحياته الطويلة فوق مياه البحر ، كما أن تمكنه من ابداع أدب البحر وعلم البحر جاء بعد معاناته فى البحر واطلاعه على علوم الآخرين وثقافتهم وتجاربهم . فقال فى الفصل الحادى عشر من كتابه « حاوية الاختصار فى أصول علم البحار » ، وهو عمله الشعرى الثانى الكبير ، هذه الأبيات :

قد راح عمرى فى المطالعات ... وكثرة التسآل فى الجهات
وكم رأيت فى خطوط الشول ... ونظمه والنثر والفصول
وكم نظرت فى الحساب العربى ... وحسبة الهند مذ كنت صبى
فلم أر فى اتفاق أصلى ... فى القمر والزنج صحيح النقل
وفى جنوبى جاوه والصين ... والفال علماً صادقاً يقين

(٧) كراتشكوفسكى ، تاريخ الأدب الجغرافى العربى ، حـ ٢ ، ص ٥٧٥ .

أى أنه اطلع على الحساب عند البحارة الهنود (الشول) وعلى الشعر والنثر وعلى الحساب العربى والهندى منذ صباه حتى أمكنه تصحيح قياسات السابقين إلى جزر البحر الأحمر والسواحل الأفريقية والهندية .

وقد زودته تجاربه البحرية وثقافته العلمية والأدبية بثقة كبرى دعته إلى الفخر بنفسه وبعلمه وبأدبه وبدوره الريادى فى أدب البحر وعلم البحر ، فقال فى أرجوزته « ميمية الأبدال » :

حصرت نجوم الأفق فى البحر هاديًا ... بها سالك البحر المحيط الأعظم
بخير قياسات وجم فوائد ... فلم يعترض لى غير جحش معمم

ثم يقول :

والقوا سلاح الجهل لما تحققوا ... مقالى فى عرب وعجم وديلم
بقولى رابع لثلاثة ... فحق لحسادى تموت وتغتم
بوادر علم البحر عنى تفرعت ... وخير صفات البحر تصدر من فى

وتتركز أعمال ابن ماجد ، فى أدب البحر وفى عالم البحر ، فى مؤلفاته الشعرية وكتابه النثرى فى أدب المرشدات البحرية ، وقيادته لسفينة المكتشف البرتغالى فاسكودى جاما فى رحلته إلى الهند ، وإسهامه فى علم البحر . وسنعرض لها بإيجاز فى الصفحات التالية .

يقول كراتشكوفسكى إن مؤلفات ابن ماجد تبلغ أربعين مؤلفاً ، وإن أكثرها يتواجد فى مخطوطات المكتبة الأهلية بباريس ، التى اكتشفها المستشرق الفرنسى فيران ، وأنه تم كشف عدة مخطوطات أخرى لابن ماجد فى دمشق والموصل وبمعهد الدراسات الشرقية بلينينجراد ، ولم يطلع عليها فيران . وإن معظم هذه المؤلفات كتبت شعرًا عدا أكبرها « كتاب الفوايد فى أصول علم البحر والقواعد » الذى كتبه نثراً . ومزج فيه بين تجاربه وتجارب سابقيه فى البحر الأحمر والخليج والمحيط الهندى وأرخبيل الهند الشرقية (الملايو) . ويرجح أن ابن ماجد أعاد كتابة هذا الكتاب ثلاث مرات فى أعوام ٨٨٠هـ/١٤٧٥م ، ٨٨٢هـ/١٤٧٨م ، ٨٩٥هـ/١٤٨٩م ، أى أنه استغرق نحو خمسة عشر عامًا فى كتابته . وقد قسم الكتاب إلى مقدمة واثنى عشر فصلا سمى كلا منها بالفائدة ، وجمع فيها بين علم البحر والأسطورة وبين النظرى والتطبيقى ، ولم يزل بعض ما جاء بها يستعمل إلى اليوم فى علم البحر . وقد اطلع

الدكتور أنور عبد العليم على مخطوطة الكتاب بباريس وأفاض فى نقل فقرات كاملة منه نشرها لأول مرة بالعربية فى كتابه عن ابن ماجد ، ونحن ننقل عنه بعض هذه الفقرات أو نلخصها .

يقول ابن ماجد فى مقدمة « كتاب الفوايد .. » إن العلم ضرورى لمعرفة البحر ، الذى يتطلب عمر الإنسان كله للإحاطة به والتمكن منه و « إن كل علم يحتمل أن يستغل به طالبه من المهد إلى اللحد كلما تفنن فيه وأدمن عليه ظهر له منه شىء لم يكن عند غيره حتى يكون مصنفًا فإن أتقنت هذا العلم لمعرفة القبلة كان خيرًا لك من أن تغفل به فإن ركبت البحر تكون عارفًا به مطمئن القلب لم تحتج إلى أموال وإن جئت إليه لجمع المال وألجأك إليه الزمان فافعل به ولا تكن ذا غفلة فإن الخطأ فيه مضل وأدعى لتلف الأرواح والأموال .. » ويتحدث فى المقدمة أيضًا عن تمرسه بقيادة المراكب من الهند والشام والزنج (ساحل الزنج فى أفريقيا الشرقية) وفارس والحجاز واليمن وأنه قادها بدقة ووصل بها إلى أهدافها « بقصد لا يميل على جهة البلد المطلوبة بأموال وأرواح » ، بفضل علمه الذى مكنه من معرفة « طول وعرض جميع البلدان والجزر الجنوبية فى البحر وما يحتاجون فيه علم ، وعلمنا يحكم على جميع ذلك لأن البحر أكثر من البر فرتبنا الكتاب ليرتقى الإنسان به .. » ويؤكد ابن ماجد فى مقدمته على ضرورة إحاطة رؤساء المراكب وراكبى البحر بعلم البحر وأن يهبوا البحر حياتهم ولا يستهينوا به أو يتكبروا على علمه ، وأنه كتب هذه الفوائد لخدمتهم وتوصيل علمه « العقلى » إليهم ، لأنه شرط الرئاسة فى المراكب وفى البحر .

ويعرض ابن ماجد فى الفائدة الأولى لتجارب سابقيه ومؤلفاتهم فى أدب المرشدات البحرية ، مع إطلالة سريعة على حكايات البحر وعجائب البحر . ويذكر أنه عثر على مخطوطة قديمة من أدب المرشدات البحرية « الرهمانى » أو « الرهمانج » يرجع تاريخها إلى عام ٥٨٠ هـ بخط يد حفيد « ليث بن كهلان » ثالث الثلاثة الرواد فى أدب المرشدات البحرية . كما يشيد برائد آخر سابق عليهم يدعى المعلم « خواشير بن يوسف بن صلاح الأركى » ، الذى كان يسافر بالبحر على مركب هندى ، ثم تحدث عن نفسه كرابع للثلاثة وذكر إضافاته التى نظمها فى الأراجيز والقصائد ولقيت استحسان « أهل هذا الفن » ، أى أهل البحر وقادة سفنه « وعملوا به واعتمدوا عليه فى شدايدهم مثل رؤيا الجبال ومثل القياسات وأسماء النجوم ومعرفتها والهداية بها » . ولعلنا نلاحظ تسرب بعض المفردات العامية والتراكيب العامية فى كتابات ابن ماجد وبعض الأخطاء اللغوية والإملائية أيضاً ، وقد نقلناها بحالتها بدون

تصحيح . ويقول ابن ماجد « وفى الحقيقة إن الناس كانوا فى الزمان الأول أكثر حزمًا ولا يركبون البحر إلا بأهله من شدة الحزم والخوف والحذر من البحر ويعدوا للمركب اعتدادا جيدا ولا يؤخرون الموسم ولا يشحنون المركب غير العادة ونحن أكثر منهم علما وتجربة وكل فن من فنون البحر له أصل » . ثم يذكر هذه الفنون بدقة وأسلوب علمى لا يفهمه بسهولة إلا عالم متخصص من علماء البحر ، لثرائه بالمصطلحات البحرية ، من أسماء أدوات الملاحة على السفينة إلى طرق القياس وهى مصطلحات فنية وعلمية تخرج عن موضوعنا « أدب البحر » .

وفى الفائدة الثانية يعرض ابن ماجد المعلومات والإشارات البحرية الضرورية للربان البحرى ، من رصد ظهور النجوم البحرية واختفائها إلى الإرشادات الدالة على اقتراب السواحل ، كالقاع الطينى والحشائش والنباتات والرياح والمد والجزر « وحلول الشمس والقمر والرياح ومواسمها ومواسم السفر فى البحر وآلات السفينة وما يحتاج إليه الربان منها وما يضرها وما ينفعها » .

ثم يفصل فى الفائدتين الثالثة والرابعة أنواع النجوم التى ترشد المعلم البحار فى عرض البحر والبروج الفلكية والكواكب . وفى الفائدة الخامسة يدل « معالمة البحر » على كتب الجغرافيا والفلك والرياضيات الواجب الإحاطة بها . وفى الفائدة السادسة يتحدث عن « بيت الإبرة » واستخدام السمكة الحديدية الطافية فوق الماء ليحدد برأسها القطب . ثم يوجه النصح والتحذير معًا إلى قائد البحر من خطورة ركوب البحر ، وضرورة اليقظة من « علل البحر » . فيحذره من النوم ومن إهمال البوصلة وارتفاع « الموجة » ورشح المياه فى قاع المركب ، ومن صاحب الدفة الذى لا يجب أن يغفل عنه . وفى الفائدة السابعة يتحدث عن أهمية الدقة فى قياس النجوم ، ويوجه للربان نصائح طريفة بضرورة غسل وجهه جيدًا عند القيام من النوم ليضمن صحة القياس « واعلم أن للقياسات علة فمنها إذا قمت من النوم ينبغى أن تغسل وجهك وعينيك بماء بارد وتجود الجلسة .. » ثم يذكر طرق القياس العلمية الدقيقة ويحدد آلاتها وخاماتها وأوضاعها .

وفى الفائدة الثامنة يشرح ابن ماجد طرق إعداد السفينة للإبحار قبل أن تنزل إلى الماء والتأكد من أجهزتها الملاحية واستعدادات رجالها ، ثم بعد أن تنزل إلى البحر ، وما تواجهه فى إبحارها من رياح وعواصف ، وتوقيتها ، وعلامات الطريق البحرية من حشائش وطيور وأسماك معينة وقمم جبلية ودلالتها على اقتراب أحد السواحل . ويحدد من أسماء الطيور « المنجى

والقرعا » ، ومن أسماء الأسماك « البتان والهاول » . ويقول « فإذا رأيت هذه العلامات يكون بينك وبين بر الصومال مسيرة نحو ١٢ ساعة تقريبًا بالشراع إذا كانت الريح مواتية » . ويحدد المرشدات البحرية إلى سواحل البحر الأحمر والمحيط الهندى . وفى الفائدة التاسعة يصف السواحل العربية والأفريقية للبحر الأحمر والمحيط الهندى ويتعداها إلى البحر الأبيض المتوسط (البحر الرومى) ، اعتمادًا على ما جاء بكتاب المسعودى « مروج الذهب ومعادن الجوهر » وعلى ما استقاه ابن ماجد من ملاحى الشام . ويتحدث عن الساحل الغربى الأفريقى وعن طريق الفلفل أى طريق التوابل ، وهو الطريق البحرى الذى سار فيه البرتغاليون فيما بعد اعتمادًا على الخبرة الملاحية للعرب .

وفى الفائدة العاشرة يصف ابن ماجد ما يسميه « بالجزر الكبار المشهورات المعمورات » ، وهى الجزيرة العربية (شبه الجزيرة العربية) وجزيرة القمر (مدغشقر) وجزيرة شمطرة (سومطرة) وجزيرة جاوة وجزيرة سيلان وزنجبار ، ويضفى على الجزيرتين الأوليين أوصافاً أسطورية بتصوره انفصالها عن الأرض والتحامها بها بعد طوفان نوح . أما باقى الجزر فيذكر ثرواتها المعدنية والزراعية ويتحدث عن حكامها وأهلها . ويحدد ابن ماجد فى الفائدة الحادية عشرة الأوقات المناسبة للسفر فى البحر واختلافها مع اختلاف السواحل والموانئ المقصودة ، وحالات المطر والرياح والمد والجزر .

أما الفائدة الثانية عشرة والأخيرة من كتاب « الفوايد .. » فيخصصها ابن ماجد لحديث مطول عن البحر الأحمر (بحر القلزم) ومراسيه وصخوره وجزره وشعبه المرجانية التى يحذر من مخاطرها الليلية ويذكر بعض الحوادث التى تحطمت فيها المراكب .

هذا هو أهم ما جاء « بكتاب الفوايد فى أصول علم البحر والقواعد » لابن ماجد ، وهو أهم كتبه أيضًا فى أدب المرشدات البحرية ، وهو يندرج فى علم البحر أكثر مما يتصل بأدب البحر ، ولكننا أولياه كل هذا الاهتمام لما يمثله من علم البحر والتجارب العملية البحرية التى قدمها العرب فى هذا المجال .

أما سائر مؤلفات ابن ماجد فتدخل فى صميم أدب البحر وأدب المرشدات البحرية . ويقول كراتشوفسكى إنها منظومة شعرًا ، وإنها تحمل عادة اسم الأراجيز بالرغم من أنها لم تنظم فى كل الحالات ببحر الرجز ، وأن كل واحدة منها تتحدث عن طريق بحرى معين ، « أى أنها أشبه ما تكون بمرشدات بحرية بالنسبة لعصرها وأحياناً قد تمس الكلام على مسائل

تخصصية ترتبط بالملاحة وعلم الفلك البحرى »[٨] . وأنها تتراوح بين عشرين وثلاثمائة بيت . وقد كتب معظمها قبل كتابه الكبير فى الفوائد . . ، أى أنها كانت أشبه بمسودة لهذا العمل الكبير لذا يعد « كتاب الفوائد » ذروة إبداع ابن ماجد وخلاصة تجاربه وعلمه . ويقول كراتشكوفسكى إن « كتاب الفوائد . . » وأرجوزته « حاوية الاختصار فى أصول علم البحار » التى أتمها فى بلدته جلفار فى عام ٨٦٦ هـ أو ١٤٦٢ م ، هما أهم مؤلفات ابن ماجد حجمًا ومضمونًا . وإن سائر المؤلفات تعتبر مرشدات بحرية فرعية وجزئية وأنه توجد ثلاث أراجيز محفوظة بين مخطوطات معهد الدراسات الشرقية بلينينجراد ، لم يطلع عليها المستشرق الفرنسى فيران ، وقد نشرها شوموفسكى ، وهو أحد تلاميذ كراتشكوفسكى ، ترجمها إلى اللغة الروسية وعلق عليها ، وصدرت فى لينينجراد سنة ١٩٥٧ بعنوان « ثلاث مرشدات بحرية غير معروفة لأحمد بن ماجد الدليل العربى لفاسكودى جاما » . وتقع أكبر الأراجيز فى ستمائة بيت ، وتصف الطريق البحرى من ملبار إلى ساحل الزنج على الساحل الشرقى الأفريقى . فى حين تقع الثانية فى مائتين وثمانين بيتًا وتتناول الطريق البحرى بين الهند وسيلان وجاوه ، أما الأرجوزة الثالثة فهى أصغر الأراجيز الثلاث إذ تقع فى خمسة وخمسين بيتًا ، وتصف طريق البحر الأحمر بين جدة وعدن .

أما « حاوية الاختصار فى أصول علم البحار » فيقول كراتشوفسكى إنها تقع فى نحو ألف بيت وأحد عشر فصلاً ، أو مقدمة نثرية قصيرة و ١٠٨٣ بيتا شعريًا كما حددها الدكتور أنور عبد العليم فى كتابه . وفى مقدمة « حاوية الاختصار . . » يصف ابن ماجد ما قام به من مراجعة المرشدات البحرية لسابقيه وتصفيتها واختصارها واستبعاد الحشو منها : « صفيتها مما سلك فى عصرى من الأراجيز المصنفة والرهمانجات الواسعة المؤلفة كثيرة التردد والتكرار مستحسنة لكافة الجمهور وهى للمهموم إقالة وحضور وكان قصدى الاختصار وإسقاط الحشو من هوش الإكثار لئلا يستطيلها الملول ولا ينفرغ لقرايتها المشغول فرحم الله من تصفح ما يجده من الزلل ويصلح ما فيها من خطأ وخلل . وهى الأرجوزة المسماة بحاوية الاختصار فى أصول علم البحار . . » .

ويقع الفصل الأول من « حاوية الاختصار . . » فى خمسة وخمسين بيتا ويتناول علامات

---

(٨) كراتشكوفسكى ، تاريخ الأدب الجغرافى العربى ، حـ ٢ ، ص ٥٧٥ .

اقتراب الساحل التى ذكرها فى كتابه « الفوائد .. » مثل القاع الطينى والحشائش والأسماك والطيور ، ولكنها تأتى هنا شعرًا :

مثل قوله :

والطين والحيات والأطيار والحوت والحشيش خذ أخبارى

وقوله عن النور المنبعث من النباتات والحيوانات الفوسفورية وتحذيره من الحيات أو الثعابين المائية :

تغير الأمواه فى الحالات يحصل من طل ومن حيات
حتى يصير الماء مثل النور مذاك يخفى على التحرير
وإن رأيت الماء قد تغيرا مارجة الشباب فمنه الحذرا

ويقع الفصل الثانى فى ستين بيتًا ، ويتحدث فيه عن منازل النجوم أو الأخنان والأبراج الفلكية . ومطلعها ومغيبها والاسترشاد بنجوم معينة فى الطرق البحرية :

وبعد ذا معرفة الأخنان بدورة المركب يا إخوانى
الجاه والفرقد والنعش معًا ناقته والبار قولى اسمعا
والكاثر المشهور والسماك والنجم .. انشقاق الأفلاك
وخلفها الجوزا ثم الشعرى وبعدها الإكليل والعقرب ترى
ثم الحمارين مع السهيلى الستير المعترف السعيلى
والمحنث الدانى لنحو القطب مؤرخ عند الملا فى الكتب
فهذه هى معرفة المشارق والغرب ما أوصفه للحاذق

ويدور الفصل الثالث حول التوقيت وحساب السنين (والباشيات أو قياس ارتفاعات النجوم) ويقع فى أربعين بيتا :

وإن ترد معرفة الباشى ما سمع حديث ثقة ماشى
فى الغلق فى موسم الأسفار أو كل فصل فيه لا تمارى
إذا رأيت يا فتى باشيًا أو مستقلا صار مستويًا

واعلم بأن الفجر مبتداه وإن آتى المغرب خذ سواه
ودعه ستة شهور حتى ترى قياسه يدور
بالفجر واعلم أنه مستقل فقسه ستة أشهر يا رجل
من آخر الليل لأول الليل أوصيك فى ذلك يا خليلى

ويتحدث أيضًا عن السنة القمرية والسنة الشمسية :

فالسنة الناقصة القمرية والزايدة تعرف بالشمسية
والقبط والفرس معًا والروم عامهم يزيد عنهم يوم

ويمضى الفصل الرابع فى الحديث عن الباشيات ، ارتفاعات النجوم ومواسمها وشهورها وطرق قياسها وزوالها على حساب النيروز ، ويقع الفصل فى ١٦٧ بيتًا ، فيقول :

وإن ترى النيروز منه قد مضى عشرون يومًا بل أقل وأنقصا
يصح فى البحر القياس الأصلى الصادق المشهور فى ذا الشغل

أما الفصل السادس والسابع والثامن فيتناول فيها ابن ماجد وصف الطرق البحرية إلى السواحل الأفريقية والهندية والعربية وحساب المسافات بينها وبين الجزر البحرية كقوله فى الفصل الثامن عن قياس الزمن وحساب المسافة بين رأس زجد فى الهند ورأس الحد فى جنوب الجزيرة العربية :

أما المسافة بين بر العرب وبين بر الهند فهى عندى
وعند كل الخلق أربعينا بين زجد والحد يا فطينا

ويبلغ عدد أبيات الفصل السابع سبعة وستين بيتًا ويدور حول قياس البحر :

أما قياس البحر يا مهذبا قياسه الأصلى الذى قد جربا
فى مستقل الصرفة فوق الرأس واعتدلا فراقد القياس

أما الفصل العاشر فيوجهه إلى الربان لمعرفة تركيب أجزاء السفينة وجريان الماء فى البحر والمحيط وبين السودان والهند والصين .

ويفرد الفصل الحادى عشر والأخير من كتابه الشعرى (حاوية الاختصار ..) للتقويم بالساعة والتقدير الزمنى للمسافات (الزام) ، والاستعانة بالمنازل أو أبراج النجوم وبالقمر والشمس فى تحديد الوقت ، ويقع فى ١١٤ بيتًا ومطلعها :

ومن أحب معرفات الزام وقسمة الجمة بالتمام
فليقيد فى جملة المنازل ما كان منها طالعًا وآفل
والبدر بالليل معًا والشمس لكل ساعة منزل وسدس

هذه أهى أهم محتويات كتابه الشعرى « حاوية الاختصار فى أصول علم البحار » ، التالى فى الأهمية لكتاب « الفوائد فى أصول علم البحر والقواعد » ، مع أنه يسبقه فى تاريخ التأليف . وهذان الكتابان هما أهم مؤلفات ابن ماجد ، إذ يحتويان على خلاصة تجاربه العملية ، فى البحر والخليج والمحيط ، وعلمه النظرى كما يمثلان ثقافته وأدبه وشعره . أما المؤلفات الأخرى فهى مرشدات بحرية فرعية تعد المرحلة الأولى لتأليف ابن ماجد فى أدب المرشدات البحرية وأدب البحر العربى . وقد جمع ابن ماجد خلاصتها فى كتابيه الكبيرين : « كتاب الفوائد .. » و « حاوية الاختصار » لذا سنكتفى هنا بما ذكرناه عن هذين الكتابين الرئيسيْن دون تناول تلك الأراجيز الشعرية لابن ماجد . وكم نتمنى أن تقوم مؤسساتنا العلمية والثقافية العربية بتجميع مؤلفات ابن ماجد كاملة ، وتحقيقها ونشرها تكريمًا لذلك الأديب الملاح العالم الذى اهتم به المستشرقون وترجموا مؤلفاته وأشادوا به ، ولم ينل حقه من الاهتمام لدى أهله وبنى أمته العربية .

أما قصة اتصال ابن ماجد بالمكتشف البرتغالى فاسكودى جاما وقيادته لسفينته إلى الهند ، فإنها قصة هامة تدل على دور العرب الريادى فى خدمة الملاحة البحرية والحضارة الإنسانية ، وقد جاءت قصة ابن ماجد مع فاسكودى جاما بروايات مختلفة عبر المصادر العربية والأجنبية . فنجد أول إشارة إلى اتصال فاسكودى جاما بالملاحين العرب واعتماده على مرشداتهم البحرية ، فى المصور الجغرافى الذى وضعه « فرامورو » عام ١٤٥٧ ، وذكره كراتشكوفسكى ، وقال « فرامورو » إن العرب داروا حول القارة الأفريقية ووصلوا إلى المحيط الأطلنطى ، وإن فاسكودى جاما شاهد سفنًا عربية شمالى موزمبيق تحمل بوصلات لتوجيه السفن وخارطات بحرية . وإن فاسكودى جاما عثر فى إحدى هذه السفن العربية على

مخطوطات عربية حملها إلى الملك مانويل . وإن البرتغالى « البوكرك » يدين بفتوحاته فى عمان والخليج إلى خريطة بحرية عربية وضعها ربان عربى يدعى عمر . وإن فاسكودى جاما ، قال بأن ملاحاً مسلماً أسره البرتغاليون قرب جزيرة سومطرة « كان ربانًا عظيمًا ذا معرفة جيدة بهذا الساحل وقد أعطاه مرشدًا للطرق البحرية مبينة عليه جميع موانى مملكة هرمز وهو من وضع ربان آخر يدعى عمر كان قد صحبه ذلك الربان فى البحر » . هذه هى أول رواية عن اتصال فاسكودى جاما بالملاحين العرب واعتماده على تجاربهم البحرية وعلومهم البحرية فى الدوران حول القارة الأفريقية . مما يؤكد سبق العرب للبرتغاليين فى اكتشاف تلك الطرق البحرية والسواحل الأفريقية والهندية .

وتأتى الرواية الثانية لقصة ابن ماجد مع فاسكودى جاما فى كتاب « آسيا البرتغالية » للمؤرخ البرتغالى باروش . فقال باروش إن فاسكودى جاما التقى فى مالندى الواقعة على الساحل الشرقى لأفريقيا بملاح مسلم من كجران يدعى المعلم كانا أو كانكا ، وأنه اطلع على ما يحمله من الخرائط والآلات البحرية ودلّه على طريق الهند وقاد سفنه إلى ميناء قليقوت (كلكتا) على ساحل ملبار . ومعروف أن فاسكودى جاما وصل إلى مالندى فى شهر مارس عام ١٤٩٨ ، وأنه أمضى بها شهرًا تعرف خلاله بابن ماجد وتوثقت أواصر الصداقة بينهما بعد أن وجد لدى ابن ماجد علم البحر وأسرار الطرق البحرية . وعرف فيه قائده ودليله ومرشده إلى غايته وهدفه ، الطريق البحرى إلى الهند .

أما الرواية الثالثة عن قصة التقاء فاسكودى جاما بابن ماجد فقد جاءت من المستشرق الفرنسى فيران فى أوائل القرن العشرين ، وهى تتمة وتفسير لما غمض فى الرواية الثانية . فقد فسر « فيران » الأسماء الواردة فى الرواية السابقة وقال إنها ألقاب احترام وليست أسماء أعلام . فالمعلم تطلق على الخبير المتمرس بتجارب الإبحار وبعلم البحر . و « كاناكا » يعنى الحاسب أو المنجم ، نقلا عن لفظ سنسكريتى مستعمل فى « ملبار » ، وهكذا عرف فيران أن المعلم كانكاليس اسم ملاح عربى ولكنه لقب مقصود به « الخبير بالشئون الملاحية والفلكية » . غير أن فيران هو الذى كشف الرواية العربية الرابعة لقصة التقاء ابن ماجد بفاسكودى جاما .

وترجع هذه الرواية العربية إلى الجغرافى والمؤرخ العربى قطب الدين النهروالى (٩١٧ – ٩٩٠ هـ أو ١٥١١ – ١٥٨٢ م) وقد رواها النهروالى فى كتابه « البرق اليمانى فى الفتح

العثمانى » بعد وقوع رحلة فاسكودى جاما بنحو نصف قرن . وهذا هو نص رواية النهر إلى :
« وقع فى أول القرن العاشر (ابتداء من عام ١٤٩٥م) من الحوادث الفوادح النوادر دخول الفرنقال اللعين من طايفة الفرنج الملاعين إلى ديار الهند وكانت طايفة منهم يركبون من زقاق سبتة (مضيق جبل طارق) فى البحر ويلجون فى الظلمات (أو بحر الظلمات وهو المحيط الأطلنطى) ويمرون خلف جبال القُمْر بضم القاف وسكون الميم جمع أقمر أى أبيض وهى مادة أصل بحر النيل ويصلون إلى المشرق ويمرون بموضع قريب من الساحل فى مضيق أحد جانبيه جبل والجانب الثانى فى بحر الظلمات فى مكان كثير الأمواج لا تستقر به سفاينهم وتنكسر ولا ينجو منهم أحد واستمروا على ذلك مدة وهم يهلكون فى ذلك المكان ولا يخلص من طايفتهم أحد إلى بحر الهند إلى أن خلص منهم غراب (سفينة صغيرة) إلى بحر الهند فلا زالوا يتوصلون إلى معرفة هذا البحر إلى أن دلهم شخص ماهر من أهل البحر يقال له أحمد بن ماجد صاحبه كبير الفرنج وكان يقال له الأملندى (أى الأميرال) وعاشره فى السكر فعلمه الطريق فى حال سكره وقال لهم لا تقربوا الساحل من ذلك المكان (أى الساحل الأفريقى) وتوغلوا فى البحر ثم عودوا (أى إلى ساحل الهند) فلا تنالكم الأمواج ، فلما فعلوا ذلك صار يسلم من الكسر كثير من مراكبهم فكثروا فى بحر الهند وبنوا كوة بضم الكاف العجمية وتشديد الواو بعدها هاء اسم لموضع من ساحل الدكن هو تحت الفرنج الآن ومن بلاد الدكن قلعة يسمونها كوتا ثم أخذوا هرموز وتقووا هناك وصارت الأمداد تترادف عليهم من البرتقال فصاروا يقطعون الطريق على المسلمين وعم أذاهم على المسافرين فأرسل السلطان مظفر شاه بن محمود شاه بن محمد شاه سلطان كجرات يومئذ إلى السلطان الأشرف قانصوه الغورى يستعين به على الإفرنج » .

هذه هى الرواية العربية لقصة ابن ماجد وفاسكودى جاما ، كما رواها النهروالى ، وهى تفسر الكثير من الروايات السابقة بأن تحدد اسم ابن ماجد لأول مرة . أما قصة سكر ابن ماجد فيرفضها المستشرق الروسى كراتشكوفسكى ، ويقول إنها قصد بها تبرير موقف ابن ماجد من فاسكودى جاما وإرشاده لسفينته .

ويقول د . أنور عبد العليم أنه تبرير واه لأن ابن ماجد كان حين ذاك قد تجاوز سن الستين ، وأنه لا يعقل أن يقدم رجل ، تدل مؤلفاته على تدينه وخلقه القويم ، أن يقدم على السكر ، كما أن السكر نفسه يعطله عن القيادة الصحيحة لسفن فاسكودى جاما فى رحلتها إلى الهند . ولكنه يرجح أن ابن ماجد قبل قيادة أسطول فاسكودى جاما وتعريفه على الطريق إلى

الهند ، بناء على تكليف من ملك ماليندى الذى أغراه البرتغاليون بالهدايا وهددوه بأسر قريب له كما روى المؤرخ البرتغالى دى باروش وذلك بعد أن فقد فاسكودى جاما إحدى سفنه «بريو» قرب الساحل الأفريقى بفعل الرياح والعواصف والأنواء فضم ملاحيها إلى سفينتيه الأخريين. ولما صعب عليه الطريق رسا بميناء ماليندى وتعرف بملكها وطلب منه دليلاً متمرساً بالبحر والمحيط ليقوده فى طريقه إلى الهند ، فلما تباطأ الملك فى الاستجابة لطلب فاسكودى جاما ، أسر الأخير أحد أقارب الملك ، فاضطر الملك لتعريفه بابن ماجد ، وعندما عرض ابن ماجد آلاته وخرائطه ومعلوماته البحرية ، بهر فاسكودى جاما ، كما قال دى باروش ، بآلات الرصد الموجودة مع ابن ماجد وبخاصة الأسطرلاب العربى المصنوع من المعدن والخرائط البحرية العربية الموضح عليها خطوط الطول والعرض وطرق القياس بالأصبع ، وقد فاقت كلها ما حمله دى جاما من خرائط وآلات . ووجد فيه المكتشف البرتغالى ضالته . فأقلع على الفور قاصدًا الهند فوصلها بعد اثنين وعشرين يومًا ورسا فى كلكتا . فأثبت ابن ماجد مدى تقدم العرب فى الملاحة البحرية علماً وتجربة ، وأكد فضل العرب على الحضارة الأوربية .

وقد أفادت الرواية العربية للنهروالى المستشرقين الأجانب ، ومكنتهم من العثور على مخطوطات ابن ماجد التى وردت عناوينها فى كتاب لأمير البحر التركى سيدى على ريس عنوانه « محيط » . ويقول بعض المستشرقين مثل فيران إن هذا الكتاب ليس سوى ترجمة حرفية لمؤلفات ابن ماجد وسليمان المهرى ، ويقول المستشرق كراتشكوفسكى إنه استقاها من مؤلفات الملاحين العربيين بدون نسبتها لأصحابها . فى حين يرى الدكتور أنور عبد العليم أن المؤلف التركى ذكر اسميْ ابن ماجد وسليمان المهرى مع أسماء كتبهما ولكنه يؤيد ترجمة أمير البحر التركى لأعمالها مع تزويدها بإضافات من واقع تجاربه .

وقد أسهم ابن ماجد فى إثراء علم البحر العربى فى عصره . وظلت بعض إنجازاته صحيحة ومستخدمة إلى يومنا هذا . ونظرا لأنها ذات طبيعة علمية وفنية وتغلب عليها المصطلحات البحرية ، ولأنها تخرج أيضاً عن موضوع بحثنا فى أدب البحر ، فإننا نكتفى بذكر أبرز إضافات ابن ماجد العلمية فى علم البحر . ولعل أهمها هى مرشداته البحرية فى وصف الطرق البحرية ، واعتماده على تجاربه العلمية فى تحديد الطرق الملاحية لدى الإقلاع بالبحر . ويقول د . أنور عبد العليم إن هذه المرشدات البحرية تضمنت معلومات مبتكرة لم يتوصل إليها أحد قبله . مثل حديثه عن « غلق البحر » أو تغليق البحر ، وقصد به تحديد مواسم السفر بالبحر من كل ساحل

حسب أنواع الرياح ودرجات الحرارة وتغير مجرى التيارات المائية ، وكذلك تحديد الأوقات غير الملائمة للإبحار وتغليق البحر . وأن ابن ماجد برع فى الإبحار بالشراع والتحكم فيه ، وما قال به من السير تحت الرياح والسير فوق الرياح أى التحكم فى السفينة وهى فى مهب الرياح .

وقد تحدث ابن ماجد فى كتابه الثرى « حاوية الاختصار »عن كل هذا قائلا :

وينبغى معرفة الأرياح ومغلق البحر والمفتاح
فغلقه يمكث ربع عام مدة « تسعون » من الأيام
إذا بدا الدبران وقت الفجر ما ينبغى الفلك عليه يجرى
حتى يرى الفلك استوى بالزبرة فجربوا حيه معًا وغزره
من أول المايتين يا فطينا لأول المايتين والتسعينا
فهذه التسعين فيها الغلقا حقيق من جاز بها أن يشقى
من مضض الوحشة والتندم وكثرة الوسواس والتألم
أما الضرورات فكم منها جرى كم جاز فيها أحمق وخاطرا

ومن الإنجازات العلمية الصحيحة لابن ماجد أيضاً حديثه عن أثر الإضاءة الفوسفورية لأعشاب البحر وشعاب البحر وبعض أسماك البحر ، وأثرها فى إفساد القياس الفلكى للنجوم وفائدتها فى تحديد موقع السفينة . ومنها أيضاً تحديده لدلالة تغير قاع البحر ، من الصخر إلى الرمل إلى الطين ، فى تحديد موقع السفينة ومسافة الساحل واتجاهه ، وكذلك الإشارات الدالة على اقتراب السواحل أو الجزر مثل قمم الجبال والمعالم الجغرافية للسواحل . وتحديده للمياه الإقليمية بأنها تنتهى مع اختفاء آخر ملامح الساحل وخروج السفينة إلى عرض البحر . وتحذيره من الرءوس البارزة فى البحر ليلا وكيفية تجنبها قائلا :

لكى تحذر يا فتى الليل من كل رأس خارج طويل
فالروس تحصى هناك بالعدد يطول فيها الشرح فى وقت النكد
فأول يلقاك فج الوادى فيه ترى الأشجار والأعواد
ورأس حنبيص مع الجزيرة بيضا تراها منه نحو الديرة

ولعل أكثر إنجازات ابن ماجد العلمية أهمية وتعقيدًا تلك الخاصة بعلم الفلك وطرق قياس النجوم التى برع فيها ابن ماجد وفى استعمال الأسطرلاب فى القياس الدقيق ، وتحديده للأوقات الملائمة لرصد النجوم وتحديد أبراجها ومنازلها وأسمائها واستعماله اليد والأصابع والذراع فى تحديد القبلة بدلا من البوصلة إذا تعطلت أو فقدت . وما أدخله من تحسينات جوهرية على « بيت الإبرة » و « تجليس المغناطيس على الحقة » . وهو ما يصفه عالم البحر د . أنور عبد العليم « بتثبيته للإبرة الممغنطة فوق سن من الوسط للتحرك حركة حرة فوق قرص وردة الرياح »[٩] .

وحتى لا نخوض فى مصطلحات علمية وموضوعات علمية تجرنا إلى الاستطراد بعيدًا عن موضوعنا « أدب البحر » . نكتفى بالقول بأن ابن ماجد أثرى علم البحر والملاحة الفلكية بكثير من المصطلحات والأسماء التى لم يزل بعضها يستعمل حتى اليوم فى الملاحة العربية . وقد نقل عنه الأوربيون بعض مصطلحاته وأسمائه بنصها الحرفى أيضاً . وهذا كله يوضح أهمية إنجازات هذا الملاح والأديب العربى العظيم أحمد بن ماجد ، وإسهاماته التى أثرت علم البحر وأدب البحر .

---

(٩) الدكتور أنور عبد العليم ، ابن ماجد الملاح ، ص ١٤٩ .